ميخائيل باختين
(ف. ن. قولوشينوف)

نحو فلسفة ماركسية للغة

(القسم الثالث)

التفاعل اللفظي

سبق أن رأينا بأن الاتجاه الفلسفي ــ اللسني الثاني يرتبط بالعقلانية والاتباعية الجديدة. أما الاتجاه الأول أي النزعة الفردانية الذاتية فيرتبط **بالرومانسية**. لأن الرومانسية كانت، والى حد كبير، رد فعل ضد الكلمة الأجنبية وضد السيطرة التي تمارسها على مقولات الفكر. كما كانت، وبشكل صريح، رد فعل ضد آخر هجمة ومحاولة قامت بها الكلمة الأجنبية لممارسة سيطرتها الثقافية : ضد عصري النهضة والاتباعية [الكلاسية] ــ فالرومانسيون كانوا هم فقهاء اللغة الأوائل الذين عالجوا اللسان الاصلي، وأول من حاول إعادة تنظيم التأمل اللسني كليا وعلى أساس النشاط الذهني المبذول باللسان الاصلي، لكونه وسيطا لنمو الوعي والفكر. صحيح ان الرومانسيين لم يبقوا فقهاء لغة بالمعنى الضيق للكلمة. وبدهي أن مجهود تثوير التفكير في اللسان ــ هذا التفكير الذي تكون طوال قرون وبقي على الدوام محافظا ــ كان فوق طاقتهم. لكن رغم ذلك فإن مقولات جديدة قد أدخلت في الفكر اللسني، تولدت عنها فيما بعد، الخصائص النوعية للاتجاه الأول. والطابع المميز لممثلي النزعة الذاتية الفردانية ــ وهم الاختصاصيون في الألسنة الحديثة ــ إنهم لايزالون حتى الآن رومانيون أساسا (فوسلر، ليوسبيتزر، لورك..).

ومع ذلك فإن النزعة الذاتية الفردانية ترتكز أيضا على القول الداخلي كنقطة انطلاق لتأملها في اللسان. حقا لقد عالج ممثلو هذه النزعة اللسان من وجهة نظر المتكلم ذاته باعتباره معبرا عن فكره الخاص من الداخل، اذا صح القول، وليس من وجهة نظر فقيه اللغة ذي الفهم السلبي.

كيف يظهر القول الداخلي من وجهة نظر الذاتية الفردانية ؟ سبق ان رأينا بأنه يبدو كنشاط فردي محض، وكتعبير عن الوعي الفردي : عن مقاصده وعن نواياه وحوافزه المبدعة وميولاته واهوائه الخ... فمقولة التعبير هي تلك المقولة العامة ذات المرتبة السامية، والتي تشمل نشاط الكلام : أي التحدث.

لكن ما هو التعبير اذن ؟ انه كل شيء يتجسد ويفصح عن نفسه — بعد ان يتم تشكيله وتحديده بكيفية او بأخرى داخل نفسية الفرد — موضوعيا للغير وبواسطة هذا القانون من الادلة الخارجية او ذاك. هذا هو تعريفه الابسط والاقل دقة.

يحتوى التعبير اذن على وجهين : **المضمون** (الداخلي) **وتجسيده** [الموضوعي] **الخارجي** لاجل الغير (او لذاته ايضا). ولابد لكل نظرية عن التعبير — مهما كانت درجة تمحيص ودقة وتعقد الاشكال التي يمكن ان ترتديها — من ان تأخذ، حتميا، بعين الاعتبار هذين الوجهين، لأن النشاط التعبيري كله يجري فيما بينهما. وبناء على ذلك يتحتم على نظرية التعبير ان تتقبل امكانية تكوُّن المضمون، الذي يجب الإفصاح عنه، خارج العبارة، وأن يتخذ في بدء وجوده شكلا معينا لينتقل من بعد الى شكل آخر. ذاك لانه اذا ما حدثت الامور بكيفية اخرى، واذا ما كان المضمون الذي يجب التعبير عنه قد وجد منذ البداية في صورة تعبير، واذا ما وجد بين المضمون والعبارة انتقال كمي (بمعنى التوضيح او التمايز الخ) فان نظرية التعبير ستنهار كلها. وتفترض هذه النظرية، حتميا، نوعا من الثنائية بين ما هو داخلي وما هو خارجي، مع اعطاء اسبقية مؤكدة للمحتوى الداخلي نظرا لكون كل تجسيد موضوعي (تعبير) ينطلق في عمله من الداخل نحو الخارج. لان منابعه داخلية. وليس صدفة ان لم تستطع نظرية الذاتية الفردانية، ككل نظريات التعبير، ان تنمو إلا في أرضية مثالية وروحانية. فكلّ ما هو جوهري وأساسي انما هو داخلي، ولا يصير الخارجي جوهريا الا بصفته وعاء للمضمون الداخلي، ووسيلة يعبر بها الروح — Esprit

حقا، إن المضمون الداخلي يتغير مظهره أثناء تحققه الخارجي لأنه مجبر على حياز ة المادة الخاجية التي تتوفر على قوانينها الخاصة والغريبة عن الفكرة الداخلية. تتغير طبيعة محتوى النشاط الذهني الذي يجب التعبير عنه، ويلفى نفسه مرغما على التواطؤ أثناء عملية السيطرة على المادة، واخضاعها وتحويلها الى وسيط مطيع للتعبير. لهذا لاسباب أنجبت المثالية — وهي التي تولدت عنها كل نظريات التعبير — ايضا نظريات ترفض التعبير رفضا قاطعا معتبرة اياه مجرد تشويه لصفاء الفكرة الداخلية(1). والأكيد، على كل حال، ان جميع القوى المبدعة والمنسقة للتعبير تكمن في الداخل، ولا يُكَوِّنُ ما هو خارجي سوى المادة السلبية لما في الداخل. ومجمل القول ان التعبير ينشأ ويتكون في الداخل، وليس تحققه الخارجي سوى ترجمة له. فيترتب عن هذا وجوب توجيه فهم الواقعة الإديلوجية والتعليق عليها وتفسيرها نحو الداخل اي السير في الاتجاه المعاكس للتعبير : انطلاقا من التحقق الموضوعي الخارجي ؛ ويتحتم على التفسير ان يتسرب نحو جذوره المكونة الداخلية. هذا هو مفهوم التعبير لدى النزعة الذاتية الفردانية.

ان نظرية التعبير التي هي أساس الاتجاه الأول للفكر الفلسفي — اللسني خاطئة جذريا. فالنشاط الذهني — المحتوى الذي يجب التعبير عنه وتحققه الموضوعي خارجيا — قد

خلقها- كما رأينا ، من مادة واحدة لانه لا يوجد نشاط ذهني بدون تعبير دلائلي. وجب بالتالي إلغاء مبدأ التمييز الكيفي بين المحتوى الداخلي والتعبير الخارجي دفعة واحدة. اضف الى ذلك ان المركز المنظِّم والمشكِّل لا يقع في الداخل اي في قانون الدلائل الداخلية بل يوجد في الخارج. ليس النشاط الذهني هو الذي ينظم التعبير، بل على العكس من ذلك ان **التعبير هو الذي ينظم النشاط الذهني** يقولبه ويصوغه ويحدد اتجاهه.

.....وكيفما كان مكوِّن التعبير ــ القول الذي نتفصحه الآن فان الشروط الواقعية للقول **الذي نحن بصدده هي التي** ستحدده اي ان **الوضع المجتمعي الأكثر مباشرة** هو الذي يحدده قبل كل شيء آخر.

الحقيقة ان القول نتاج للتفاعل الحاصل بين فردين منظمين مجتمعيا، بل انه حتى في حالة الوجود محاور واقعي يمكن الاستعاضة عنه بممثل اوسط [عادي] لنفس الفئة المجتمعية التي ينتمي اليها المتكلم. **ان الكلمة تتوجه الى مخاطب**، وهي وظيفة شخص هذا المخاطب : تتنوع حسب حالاته، أينتمي الى نفس الفئة المجتمعية ام لا ؟ هل يحتل مرتبة دنيا او عليا في السلم المجتمعي ؟ هل تربطه بالمتلكم روابط مجتمعية وثيقة تقريبا ام لا (أب، أخ، زوج، الخ...) ؟ ويستحيل وجود محاور مجرد لانه لن تجمعنا لغة مشتركة بمحاور من هذا النوع، سواء بالمعنى الحقيقي او بالمعنى المجازي. واذا طمحنا أحيانا في التفكير والافصاح عن أنفسنا شفويا مثلا، فمن المؤكد اننا سنشاهد، في الحقيقة «المدينة والعالم» من خلال موشور الوسط المجتمعي العيني الذي يحيط بنا. وفي اغلب الاحوال يصير من اللازم ان نفترض ــ فضلا عن ذلك ــ **أفقا مجتمعيا** معينا وقائما، يحدد الابداع الايديولوجي للفئة المجتمعية والعصر الذين ينتمي اليهما، افقا معاصرا لادبنا، ولعلمنا، ولاخلاقنا، ولقانونا.

ان تفكير كل فرد وعالمه الداخلي ينعمان بسماع مجتمعي خاص ووطيد، تتكون في مناخه استنباطات الفرد الداخلية وحوافزه، وتقديراته الخ... وكلما كان هذا الفرد أكثر تثاقفا كلما اقترب هذا السماع من السماع المتوسط للإبداع الايديولوجي الا ان المخاطب المثالي لا يستطيع ــ وفي الاحوال كلها ــ ان يتجاوز حدود طبقة وعصر معينين.

لهذا التوجه الذي تسلكه الكلمة حسب المخاطب اهمية قصوى. والحقيقة ان لكل **كلمة وجهان**، فهي بقدر ما تتحدد بكونها صادرة **عن** شخص ما تتحدد ايضا بكونها موجهة **الى** شخص ما، انها تشكل بالضبط **حصيلة تفاعل المتكلم والسامع**. كل كلمة تستعمل تعبيرا للواحد بالنسبة للآخر. فمن خلال الكلمة أعَرِّف نفسي بالنسبة للآخر، اي انني احددها، في نهاية المطاف، تجاه الجماعة. انها عبارة عن جسر يصل بيني وبين الآخر، فاذا كان يرتكز عليَّ باحد طرفيه فهو يستند بطرفه الاخر على مخاطبي. فالكلمة هي الوطن الذي يشترك فيه المتكلم والمخاطب.

لكن كيف يُعَرَّفُ الْمُتَكَلِّمُ ؟ الحقيقة ان الكلمة اذا كانت لا تدخل كليا في حوزته ــ بسبب وقوعها فيما يشبه منطقة الحدود ــ فانه يمتلك مع ذلك نصفها بأكمله. وفي بعض الاحوال يكون المتكلّم السيد الوحيد للكلمة وتكون هي بالتالي ملكيته الخاصة التي لا ينازعه فيها احد. تلك اللحظة هي لحظة النشاط الفيزيولوجي لتجسيد الكلمة ماديا. لكن مقولة الملكية لا يمكن تطبيقها على هذا النشاط، في نطاق كونه نشاطا فيزيولوجيا محضا.

أما اذا اخذنا ــ على العكس من ذلك ــ بعين الاعتبار التجسيد المادي للكلمة كدليل، وليس التجسيد المادي للصوت، فان مشكلة الملكية تصير أكثر تعقيدا. زيادة على كون الكلمة، كدليل، قد استقاها المتلكم من المخزون المجتمعي للأدلة المتوفرة، فان تحقق هذا الدليل المجتمعي في القول العيني هو ذاته تحدده العلاقات المجتمعية. ويشكل التفرد الاسلوبي للقول الذي يتحدث عنه الفوسليريون، بالضبط هذا الانعكاس للعلاقة المتبادلة التي ينبني في سياقها قول معين. **ان الوضع المجتمعي الاكثر مباشرة والوسط المجتمعي الأوسع يحدّدان كليا ــ وذلك من الداخل، اذا امكن التعبير ــ بنية القول.**

الحقيقة انه كيفما كان التحدث المقصود، حتى لو لم يتعلق الامر بخبر وقائعي (التواصل بمعناه الضيق) وانما بالتعبير اللفظي عن حاجة ما كالجوع مثلا، فمن المؤكد انه ينحو باكمله منحى مجتمعيا. يحدده اولا، وبالكيفية الاكثر مباشرة، المشاركون في نشاط الكلام، الاقربون والاباعد، المرتبطون بمقام محدد. فالمقام يصوغ ويحدد التحدث ويفرض عليه هذه النبرة دون تلك مثلا. يفرض عليه [الأمر] الإلزامي أو الالتماس، التأكيد على الحقوق أو طلب العفو، الأسلوب الغامض المعقد أو البسيط، الاطمئنان أو الخجل الخ... يحدد المقام والمشاركون الاكثر مباشرة وقربا الصورة والاسلوب العرضيّين للقول. ان اعمق تنايا وطبقات بنيته تحددها القيود المجتمعية الاكثر جوهرية ودواما والتي يخضع لها المتكلم.

أما اذا تعرضنا للقول في المرحلة الأولى لنموه «في الروح» فان جوهر المسألة لا يطرأ عليه اي تغيير، وذلك لان بنية النشاط الذهني هي الاخرى مجتمعية مثلها مثل بنية موضعتها الخارجية. ان درجة الوعي، والوضوح، والاكتمال الشكلي للنشاط الذهني متناسبة اطرادا مع درجة توجهها المجتمعي.

والواقع ان مجرد الشعور ــ ولو كان غامضا ــ باحساس ما، كالجوع مثلا، يمكنه ان يستغني عن تعبير خارجي، الا انه لن يستطيع الاستغناء عن تعبير ادبولوجي، ما دام صحيحا، ان كل شعور او استيعاء يستتبع حديثا داخليا، نبرة داخلية، واسلوبا داخليا، ولو كان بدائيا، ويمكن ان يكون الشعور بالجوع مصحوبا بالتضرع، او الغضب العارم، او الحسرة او النقمة. ونحن لا نذكر هنا سوى الفروق المعنوية الاكثر عمومية والاشد انطباعا بالنبرة الداخلية ؛ والواقع ان النشاط الذهني يمكن ان يُرَقَّمَ بنبرات رفيعة [دقيقة] ومعقدة. ولا

يقوم التعبير الخارجي في اغلب الاحوال سوى بتمديد وتوضيح الاتجاه الذي يسلكه الحديث الداخلي والنبرات التي يحتوي عليها.

بأي كيفية يكون الشعور الداخلي بالجوع مرقما ؟ يتوقف الامر، في الوقت نفسه، على الوضعية المباشرة التي يقع فيها الادراك، وعلى الوضع المجتمعي للجائع عامة. والواقع ان هذه هي الشروط التي تحدد في اي سياق تثميني، ومن اي زاوية مجتمعية سَيُسْتَقْبَلُ منها الاحساس بالجوع. فالسياق المجتمعي المباشر يحدد نوعية المستمعين المحتملين ــ اصدقاء ام اعداء ــ والى من سيتوجه الوعي والاحساس بالجوع : هل سيوجه الجائع تضرعاته الى الطبيعة القاسية ام الى ذاته نفسها، ام الى المجتمع، ام الى فئة مجتمعية محددة، ام الى شخص معين ؟ لابد من التمييز طبعا بين درجات وعي ووضوح، وتمايز هذا التوجيه المجتمعي للمعاش الذهني. لكن الاكيد انه لا يوجد نشاط ذهني خارج التوجيه المجتمعي ذي الطابع التثميني. فحتى بكاء الرضيع نجده متوجها الى الام. ويمكن وصف الجوع باضافة دعوة الى التمرد والهياج له. فيتبين النشاط الذهني آنئذ بحسب النداء المحتمل. ويمكن للاستيعاء ان يتخذ شكل الاحتجاج الخ ..

في العلاقة بسامع محتمل (يمكن ان يكون احيانا واقعيا) يمكن التمييز بين قطبين او حدين. يقع فيما بينهما الاستيعاء والتشكل الايديولوجي. ويتراوح النشاط الذهني فيما بين هذا القطب وذاك. ولنطلق على القطبين اسما نتعارف عليه هو : **النشاط الذهني للأنا والنشاط الذهني للنحن.**

يميل النشاط الذهني للأنا في الواقع الى الالغاء ــ الذاتي، وبقدر ما يقترب من حده يفقد قولبته الاديلوجية، ويفقد بالتالي درجة وعيه، مقتربا بهذه الكيفية من رد الفعل الفيزيلوجي الحيواني. حينئذ يبدد النشاط الذهني امكانيته، ومشروع توجهه المجتمعي كما يضيع للسبب نفسه، تجسيده اللفظي. من الممكن ان تميل انشطة ذهنية منفصلة بل حتى مقطوعات بأكلمها نحو قطب الانا، مفسدة بذلك وضوحها وصوغها الايدلوجي، مبرهنة على ان الوعي عاجز عن التجذر المجتمعي(2).

أما النشط الذهني للنحن فليس بنشاط ذي طابع بدائي وتكتلي قطيعي، بل انه نشاط متمايز. واكثر من ذلك نجد ان التمايز الايديلوجي، ونمو درجة الوعي يتناسبان طرديا مع صلابة وثبات التوجه المجتمعي. وكلما كانت الجماعة التي يتوجه فيها الفرد اقوى وافضل تنظيما وتمايزا كلما كان العالم الداخلي لهذا الأخير واضحا ومعقدا.

من الممكن ان توجد درجات مختلفة من النشاط الذهني للنحن، وانواع مختلفة من الصياغة الايديلوجية.

لنفترض ان الاسنان الجائع وعي جوعه وسط جماعة غير متجانسة من الجائعين الذين ادت بهم الصدفة الى هذا الحال (سيئو الحظ، اشقياء متسولون الخ...) سيصطبغ النشاط الذهني لهذا الفرد المعزول، المهمش، بلون خاص، وسيميل الى أشكال ادبولوجية محددة يمكن ان تتنوع وتتسع سلسلتها بما فيه الكفاية : فالخنوع، والخجل، والاحساس بالتبعية ونبرات اخرى غيرها ستلون نشاطه الذهني، وستكون الاشكال الايديولوجية المناظرة لها اي عاقبة هذا النشاط الذهني، حسب الاحوال، اما احتجاجا فرديا من طرف الفقير المعدم واما خنوعا صوفيا لطالب الثواب.

ولنفترض الآن ان الجائع ينتمي الى جماعة ليس الجوع فيها بنتيجة للصدفة وانما واقع جماعي، لكن الجائعين لا تربطهم فيما ــ رغم ذلك ــ اي علاقة مادية صلبة ووثيقة بحيث يجوع كل واحد منهم على حدة. هذا حال الفلاحين في اغلب الأحوال، فجماعة (المير») تعاني من الجوع، ولكن افرادها منعزلون عمليا ولا يربط بينهم اقتصاد مشترك. كل واحد منهم يتحمل جوعه في العالم الصغير والمغلق لضيعته الخاصة. فاعضاء الجماعة لا تلحم فيما بينهم وحدة النشاط. في خضم هذه الشروط يسود وعي بالجوع مكون من طرف الخنوع لكن لا يوجد فيه احساس بالخجل والمهانة : كل واحد يخاطب نفسه «مادام اي واحد يتألم ويعاني بصمت فلأصمت انا كذلك». على هذه الارضية تنمو الانظمة الفلسفية والدينية القائمة على القدرية والخنوع في المحن والشدائد (المسيحيون الاوائل والتولستويون الخ).

ان الجوع يحس بكيفية اخرى مغايرة لدى جماعة توحدها روابط مادية موضوعية (كتيبة من الجنود، عمال مجتمعون داخل مصنع، مياومون في استغلالية فلاحية رأسمالية كبرى، واخيرا الطبقة المجتمعية بعد ان تكون قد نضجت فكرة «الطبقة لذاتها»). وفي هذه الحالة فان نبرة الاحتجاج الفعال والواثق من نفسه هي التي تسيطر على النشاط الذهني ؛ ولا يبقى مكان للعقلية المستسلمة الخانعة. وهنا بالضبط توجد الأرضية الاكثر ملاءمة لنمو النشاط الذهني نموا واضحا وجيد التكوين من الناحية الايديولوجية(3).

تولد كل انواع النشاط الذهني التي تفحصناها ونبراتها الرئيسية نماذج واشكالا من الأقوال المناسبة لها. فالوضع المجتمعي يحدد، في كل مكان، نوع النموذج ونوع الاستعارة، ونوع صورة القول الذي سيعبر عن الجوع انطلاقا من التوجهات النبرية للنشاط الذهني.

أما **النشاط الذهني لذاته**، فيجب ان يصنف على حدة لانه يتميز وبشكل واضح، عن النشاط الذهني للأنا كما سبق ان عرفناه آنفا. فالنشاط الذهني الفرداني مُمَيَّز وَمُعرَّف على الوجه الاكمل. ان الفردانية شكل ادبولوجي خاص بالنشاط الذهني للنحن لدى الطبقة البرجوازية (ويوجد نوع مماثل عند الطبقة الاقطاعية الارستقراطية). ويتميز النشاط الذهني في نوعه الفرداني بطابع خاص هو توجهه المجتمعي الصلب والمؤكد. لا تستمد الثقة الفردانية

بالذات، والوعي بقيمتها الخاصة، من الداخل ولا من اعمق اعماق الشخصية ولكنها تستقي من الخارج : لان الامر يتعلق بالتفسير الايديلوجي لوضعيتي المجتمعية، وبالدفاع عن طريق القانون وكل البنية المجتمعية لمَعْقِل موضوعي، عن موقعي الاقتصادي الفردي. فالشخصية الفردية بدورها مبنينة مجتمعيا مثلها مثل النشاط الذهني الجماعي نوْعُه : ان التفسير الايديلوجي لوضع اقتصادي معقد وقار يُسْقَطُ في الروح الفردية. لكن التناقض الداخلي المرسوم في هذا النوع من النشاط الذهني للنحن سيقوم ــ كما يحدث تماما في البنية المجتمعية المناظرة لها ــ بتفجير صياغتها الايديلوجية عاجلا أم آجلا.

ونعثر على مثل هذه البنية في النشاط الذهني لذاته، والمعزول («الطاقة والقدرة التي تجعل الانسان يحس بأنه على حق كفرد معزول» وهو الموقف نماه وعززه رومان رولان على الخصوص وتولستوي الى حد ما). ترتكز الكبرياء الناجمة عن هذا **الموقف** الانعزالي على «النحن» ايضا. يعتبر هذا النوع من النشاط الذهني للنحن خاصية تمتاز بها النخبة المثقفة الغربية المعاصرة. ان اقوال تولستوي التي تؤكد على وجود فكر لذاته وفكر للجمهور ينجم عن تصادم بين مفهومين للجمهور. ولا يقوم هذا ال «لذاته» التولستوي بأي شيء في الواقع سوى الاشارة الى مفهوم مجتمعي خاص به. اذ لا يوجد فكر خارج تعبيره الممكن وبالتالي لا فكر خارج التوجيه المجتمعي لهذا التعبير وللفكر نفسه.

هكذا يتبين ان الشخصية التي تعبر عن نفسها ــ في حالة تناولها اذا صح القول، من الداخل ــ كلها نتاج للعلاقات المجتمعية المتداخلة. كما ان النشاط الذهني الباطني الذي تقوم به الذات يشكل مجالا مجتمعيا مثله في ذلك مثل التعبير الخارجي. ويصح الشيء نفسه بالنسبة عَلَى كل الطريق الذي يؤدي انطلاقا من النشاط الذهني (ال «مضمون الذي يجب التعبير عنه») الى التموضع الخارجي (ال «قول»). فهو الآخر يقع بمجمله داخل المجال المجتمعي. وحين يتحقق النشاط الذهني في شكل قول فان التوجه المجتمعي الذي يخضع اليه يلغي نفسه وقد تعقد اكثر بسبب تكيف فعل [نشاط] الكلام مع السياق المجتمعي المباشر وقبل اي شيء آخر مع المخاطبين العينيين.

هذا كله يلقي ضوءا جديدا على مشكل الوعي والايديلوجية. **وما الوعي بدون تموضعه وبدون تحققه في مادة معينة** (كالحركة او الكلمة او الصراخ) **سوى خرافة**. انه مجرد بناء ادبلوجي مغلوط، خُلِقَ دون اعتبار للمعطيات الملموسة للتعبير المجتمعي. يشكل الوعي، بوصفه تعبيرا ماديا مبنينا (بواسطة الكلمة، او الدليل، او الخطاطة، او الرسم، او النغمة الموسيقية الخ..)، واقعة موضوعية وقوة مجتمعية هائلة. لابد من الاشارة الى ان هذا الوعي لا يقع فوق الكائن ولا يستطيع تحديد تكوينه، لانه هو نفسه ليس سوى جزء من الكائن وقوة من قواه، لهذا السبب كان للوعي وجود واقعي، ودور يؤديه في حلبة الكائن. ومادام الوعي حبيس ذهن الكائن الواعي، بمعية جنين تعبير في صورة حديث داخلي، فمعنى ذلك انه

مازال في حالة تهيئ اولي، وان دائرة نشاطه ما تزال محدودة. لكن بمجرد ان يجتاز الوعي كل مراحل التموضع المجتمعي، وبمجرد ان يدخل في النسق القوي للعلم، والفن، والاخلاق، والقانون، حتى يصبح قوة واقعية، قادرة حتى على ممارسة تأثير ارتدادي على الأسس الاقتصادية التي تقوم عيها حياة المجتمع، وبديهي ان هذه القوة تتجسد ماديا في منظمات مجتمعية معينة، وتتسلح بتعبير اديلوجي صلب (العلم والفن الخ...) ولكن يمكن، حتى في الشكل الاصلي الغامض للفكرة المنبثقة للتو، ان نتحدث، في هذا الوقت المبكر، عن واقعة مجتمعية وليس عن فعل فردي داخلي.

يميل النشاط الذهني منذ النشأة [البداية] الى تعبير خارجي متحقق كليا. لكنه يمكن ايضا ان يتوقف وينحصر، ويؤدي في هذه الحالة الاخيرة الى تعبير معطل (اننا لن نهتم هنا بقضية معقدة جيدا هي قضية اسباب وشروط الانحصار). وما ان يتجسد التعبير ماديا حتى يمارس تأثيره الارتدادي على النشاط الذهني. فهو ينكب حينئذ على بنينة الحياة الداخلية، وترويدها بتعبير اشد تحديدا وأكثر استقرار.

لهذا التأثير الارتدادي الذي يمارسه التعبير ذو الصياغة الجيدة على النشاط الذهني (اي على التعبير الداخلي) اهمية عظمى يجب ان نأخذها دائما بعين الاعتبار. ويمكن القول بأن ليس التعبير هو الذي يتكيف مع عالمنا الداخلي بقدر ما ان **عالمنا الداخلي هو الذي يتكيف مع امكانات تعبيرنا**، ومع سبله وتوجهاته الممكنة. وسنسمي مجموع النشاط الذهني المركز على الحياة اليومية وكذا التعبير المرتبط به **اديلوجية اليومي** تمييزه عن الانظمة الايديولوجية المكونة مثل الفن والاخلاق والقانون الخ.. وتشكل اديلوجية اليومي مجال الكلام الداخلي والخارجي المضطرب وغير المستقر في نظام، والمواكب لكل فعل من افعالنا ولكل حركة نقوم بها، ولكل حالة من حالات وعينا. يمكننا القول ــ نظرا للطبيعة الاجتماعية لبنية التعبير والنشاط الذهني، بأن اديولوجية اليومي شبيهة في جوهرها بما يسمى في الادب الماركسي ب «علم النفس المجتمعي» ونفضل، في هذا السياق الخاص، تلافي كلمة «علم النفس»، لان الذي يهمنا هناهو مضمون النفسية والوعي. لكن هذا المضمون إديلوجي كليا مادامت العوامل التي تحدده غير فردية ولا عضوية (اخيائية، فزيلوجية) ولكنها اجتماعية محضة. فالعامل الفردي ــ العضوي غير حاسم في فهم قوى مضمون الوعي المبدعة الحية الجوهرية.

ان الانظمة الاديلوجية التامة من اخلاق مجتمعية، وعلم، وفن، ودين تتبلور وتتقوى انطلاقا من اديولوجية اليومي، وتمارس هي الاخرى تأثيرا ارتداديا قويا على هذه الاخيرة، وهكذا تتحكم بصورة عادية في هذه الاديلوجية. لكن هذه النتاجات الاديولوجية الناجزة تحافظ باستمرار، وفي الوقت ذاته، على رباط عضوي حي يربطها باديلوجية اليومي، فهي تتغذى من نسغها وتموت اذا ما انفصلت عنها كما يموت العمل الادبي المكتمل او الفكرة المعرفية اذا لم يخضعا لتقويم نقدي حي. لكن هذا التقويم النقدي، الذي يشكل العلة الوحيدة لوجود كل

نتاج اديلوجي يتم في لسان ايدلوجية اليومي. فهذه الاخيرة تضع العمل في وضع مجتمعي معين. وهكذا يقوم العمل بربط علاقات بمحتوى وعي الذوات المتلقية كله. ولا يمكن ادراكه الا ضمن سياق هذا الوعي الذي يعاصره. فالعمل يُؤَوَّل حسب روح محتوى الوعي (وعي الذوات المتلقية) ونخصل منه على توضيح جديد. هنا تكمن حياة العمل الايديلوجي. ويكون العمل في كل مرحلة من مراحل وجوده التاريخي مدفوعا الى اقامة اتصالات وطيدة باديلوجية اليومي المتغيرة، والى التشبُّع بها والاقتيات من النسغ الراشح منها. ولا يستطيع العمل ان يعيش في هذا العصر الا اذا كان قادرا على اقامة مثل هذا الرباط العضوي المستمر بالاديلوجية اليومية لعصر معين (وهذا، طبعا، ضمن حدود فئة أو مجموعة مجتمعية معينة). واذا ما انفصمت هذه العلاقة فانه لا يبقى مدركا كاديلوجية دالة.

يجب التمييز في اديلوجية اليومي بين شتى المستويات. وهي مستويات يحددها السلم المجتمعي الذي يصلح لقياس النشاط الذهني والتعبير، وتحددها القوى المجتمعية التي يجب على هذه المستويات ان تتوجه مباشرة تبعا لها.

يمكن للأفق الذي يتجسد فيه اي نشاط ذهني او تعبير ان يتسع ــ كما سبق ان رأينا ــ قليلا او كثيرا. وقد يكون العالم الصغير للنشاط الذهني محدودا ومبهما، كما يمكن ان يكون توجهه المجتمعي عرضيا، سريع الزوال، ولا يكون حاسما الا في اطار اجتماع طارئ لافراد قليلين ولمدة محدودة. من الطبيعي ان تكون الانشطة الذهنية التي هي ثمرة الصدفة مصطبغة رغم ذلك، اجتماعيا واديلوجيا، الا اننا نجدها قد تموضعت في الحدود الفاصلة ما بين العادي والمرضي. ويبقى النشاط الذهني العارض معزولا عن الحياة الروحية للافراد. فهو غير قادر على توطيد نفسه والعثور على تعبير كامل ومتمايز. لانه اذا لم يحظ بسماع مجتمعي محدد فعلي اي اساس يمكنه ان يتميز ويتخذ شكلا مكتملا ؟ ولا يزال ترسيخ نشاط ذهني كهذا كتابة اكثر استحالة فما بالك إذا كان ذالك في شكل طباعة. ولا حظ للنشاط الذهني المتولد عن وضع فجائي في الحصول على قوة وتأثير دائمين على المستوى المجتمعي.

يشكل هذا النوع من النشاط الذهني المستوى الادنى اي ذاك الذي ينزلق ويتحول باسرع ما يمكن ضمن اديلوجية اليومي. لذلك سنضع على هذا المستوى كل الانشطة الذهنية والافكار الغامضة والمنعدمة الشكل التي تتوهج وتخبو في ارواحنا وكذلك الاحاديث الطارئة او التي لا فائدة من ورائها. اننا هنا ازاء مجهضات التوجه المجتمعي، العاجزة عن الحياة والتي يمكن مقارنتها بروايات لا ابطال لها او بعروض لا يحضرها اي متفرج. فهي لا منطق ولا وحدة لها. ويصعب جدا ادراك قوانين اجتماعية في هذه الاشمال الاديلوجية. ولا نحصل، في المستوى الادنى من اديلوجية اليومي، الا على قوانين احصائية : لا يمكن اكتشاف السمات الرئيسية لنسق مجتمعي ــ اقتصادي الا بالانطلاق من كتلة كبرى من النتاجات التي على هذا الطراز. يستحيل طبعا، في الممارسة، ان نكتشف المسلمات الاجتماعية الاقتصادية لنشاط ذهني او تعبير معزولين.

أما المستويات العليا من ادايلوجية اليومي والمتصلة مباشرة بالنظم الايديولوجية فهي جوهرية ولها طابع المسؤولية والخلق. وتمتاز بحركية وحساسية اكثر من الادايلوجيات المكونة. انها قادرة على عكس تحولات البنية التحتية المجتمعية ــ الاقتصادية بأسرع وأوضح ما يمكن. وتتراكم، هنا بالضبط، الطاقات الابداعية التي تحدث بواسطتها المراجعات الجزئية او الكلية للنظم الادايلوجية. وتجد القوى المجتمعية حين ظهورها اول تعبير وأول صياغة ادايلوجية لها في هذه المستويات العليا من ادايلوجية اليومي وذلك قبل التمكن من غزو حلبة الأدايلوجية الرسمية المكونة. طبيعي ان تخضع هذه التيارات الجديدة في ادايلوجية اليومي ــ خلال الصراع، وأثناء عملية التسرب المتفاقم في المؤسسات الادايلوجية (الصحافة، الادب، العلم) ــ ومهما كانت ثوريتها لتأثير النظم الادايلوجية المهيمنة على الساحة، وتستوعب جزئيا الاشكال والعادات والمقاربات الادايلوجية التي تراكمت فيها.

وبشكل ما نسميه عادة بـ«الفردية المبدعة» التعبير عن النواة المركزية الصلبة والدائمة للتوجه المجتمعي للفرد. ونضع فيها، قبل كل شيء، الطبقات العليا والاحسن تشكلا من الحديث الداخلي (ادايلوجية اليومي) الذي مرت كل صورة من صوره وكل نبرة من نبراته بمرحلة التعبير، وخضعت، بشكل ما، لتجربة التعبير الخارجي. وسنضع فيها ايضا الكلمات والنبرات، والحركات الداخلية التي اجتازت بنجاح اختبار التعبير الخارجي على مستوى السلم المجتمعي الكبير او الصغير، والتي احتكت جيدا بالمجتمع، والتي وسمها السامع المجتمعي بردود فعل وباجوبة، بالرفض او المساندة.

أكيد ان العامل الحياتي [البيوغرافي] والاحيائي يلعب في المستويات الدنيا من ادايلوجية اليومي دورا هاما، ولكن اهميته تتناقص شيئا فشيئا كلما اندمج القول في النظام الادايلوجي. والحاصل انه اذا كانت التفسيرات ذات الطابع الاحيائي والحياتي تستطيع ان تسهم بشيء ما على المستويات الدنيا من النشاط الذهني ومن التعبير (المقال) فان دور هذه التفسيرات في المستويات العليا متواضع على الاكثر. وهنا يسود المنهج الاجتماعي بدون منازع.

وعلى هذا الاساس يجب رفض نظرية التعبير التي تقوم عليها الذاتية الفردانية رفضا كليا. **إن المركز العصبي لكل قول، ولكل تعبير، ليس داخليا ولكنه خارجي : إنه يقع في المحيط المجتمعي الذي يحيط بالفرد،** ولا ينبع من الداخل، من الجهاز العضوي [الفيزيولوجي] للفرد المعزول سوى الصرخة الحيوانية والتي لا يمكن تحليلها. انه رد فعل عضوي خالص ليس له طابع أو سمة ادايلوجية، وعلى العكس من ذلك نجد القول البشري الاكثر بدائية، رغم تحققه من طرف جهاز عضوي فريد، مسيرا من حيث محتواه ودلالته من خارج الفرد أي من طرف شروط المحيط المجتمعي وهي شروط غير عضوية. ان القول، بوصفه كذلك انتاج خالص للتفاعل المجتمعي، سواء تعلق الامر بنشاط كلامي يحدده المقام المباشر أو السياق الاوسع الذي يتكونه مجموع شروط حياة جماعة لسنية ما.

وعلى عكس ما تذهب اليه نظرية الموضوعانية المجردة، فان القول الوحيد (الكلام) ليس بواقعه فردية بتاتا، وليس بمستعص — بسبب فردانيته — عن التحليل الاجتماعي. والواقع أنه اذا كان الأمر على هذا الحال فلن يكون مجموع هذه الافعال الفردية، ولا الخصائص المميزة التي تشترك فيها كل هذه الافعال الفردية (الاشكال المقعدة) بقادر على أن يؤدي مباشرة الى نتاج مجتمعي.

والذاتية الفردانية مصيبة في كل تأكيدها على ان الاقوال المعزولة هي الجوهر الحقيقي للسان وبان الوظيفة الابداعية للسان تعود اليها. لكن هذا الاتجاه يخطىء حينما يجهل ويعجز عن فهم الطبيعة المجتمعية للقول، وحين يحاول استنباطها من العالم الداخلي للمتكلم، على اعتبار انها تعبير عن هذا العالم الداخلي. فبنية القول وبنية النشاط الذهني الذي يجب التعبير عنه من طبيعة **مجتمعية**. أمّا الصياغة الاسلوبية للقول فهي من طبيعة اجتماعية، والسلسلة الكلامية ذاتها، وهي التي يعود اليها في نهاية التحليل واقع اللسان، مجتمعية. ان كل حلقة فيها مجتمعية وكذلك جميع الطاقة الحيوية لتطورها.

للذاتية الفردانية كامل الحق في القول باستحالة فصل صيغة لسنية ما عن محتواها الاديلوجي. كل كلمة اديلوجية وكل استعمال للسان مرتبط بالتطور الاديلوجي، لكنها تخطيء حين تقول بان هذا المحتوى الاديلوجي يمكن هو الاخر بأن يستنتج من شروط النفسية الفردية.

ان الذاتية الفردانية مخطئة — مثلها مثل الموضوعانية المجردة — في كونها تقوم أساسا على القول — الداخلي. حقا يقوم بعض الفوسليريين بمعالجة مشكل الحوار الشيء الذي يؤدي بهم الى فهم اكثر صوابا للتفاعل اللفظي. سنستشهد على سبيل المثال بكتاب (ليوسبيتزر Italienische Umgangsprache) (Léo Spitzer حيث نعثر على محاولة لتعليل الصيغ الايطالية المستعملة في الاحاديث في علاقة وطيدة بظروف الاستعمال، والوضعية المجتمعية للمخاطب قبل كل شيء[4]. الا أن طريقة ليوسبيتزر **نفسية — وصفية**. فهو لا يستنبط من تحليله أي خلاصة اجتماعية متماسكة. ويبقى القول — الداخلي أساس الواقع اللسني عند الفوسليريين.

لقد وضع أوطو ديتريش (otto Dietrich) مشكل التفاعل اللفظي بوضوح صارخ،[5] منطلقا من نقد نظرية القول كوسيلة للتعبير. ويرى أن الوظيفة المركزية للغة ليست هي التعبير وانما **التواصل** ويقوده ذلك الى الاهتمام بدور السامع. ويكون زوج المتكلم — السامع بالنسبة الى ديتريش الشرط الضروري للغة. ورغم ذلك فهو يشاطر الذاتية الفردانية في أهم مقدماتها النفسية — السيكولوجية. إضف الى ذلك أن بحوث ديتريش مجردة من كل اساس اجتماعي جيد التحديد.

آن أوان الاجابة على الاسئلة التي طرحنا في مستهل الفصل الرابع. إن الظاهرة المجتمعية **للتفاعل اللفظي**، المتحقق عبر **القول و الاقوال هي** التي تكون الجوهر الحقيقي للسان وليس النظام المجرد للصيغ اللسنية ولا القول ــ الداخلي المعزول، ولا الفعل النفسي ــ العضوي لانتاجه. وهكذا يشكل التفاعل اللفظي الواقعة الاساسية للسان.

من الطبيعي الا يكون الحوار، بمعناه الضيق، سوى احدى صيغ (حقا انها من بين أهم الصيغ) التفاعل اللفظي، لكن يمكن أن نفهم «الحوار» بمعناه الواسع أي ليس فقط كتبادل بصوت عال يستدعي تحاور افراد متواجهين ولكن نعنى به كل تبادل لفظي كيفما كان نوعه.

كذلك الكتاب، وهو فعل كلامي مطبوع، يشكل أحد عناصر التبادل اللفظي. انه موضوع نقاشات فعالة تتخذ شكل حوار، وهو مصنوع بالاضافة الى ذلك لكي يفهم بطريقة فعالة، ولكي يدرس بعمق وليُعَلَّقَ عليه ويُنتَقَدَ في إطار الحديث الداخلي . هذا دون اعتبار ردود الفعل المطبوعة. والمؤسسية، كما نجد ذلك في مختلف دوائر التواصل اللفظي (الانتقادات، والعروض التي تؤثر في الاعمال التالية الخ..) إضافة الى ان الفعل الكلامي الذي يتخذ شكل كتاب يتجه دائما حسب ما تقتضيه المداخلات الكلامية السابقة، وفي دائرة النشاط نفسها سواء كانت مداخلات المؤلف نفسه أو مداخلات مؤلفين آخرين. إنه ينتج اذن عن الوضعية الخاصة لمشكل علمي أو نمط انتاج أدبي. وهكذا فالحديث المكتوب إنما هو بشكل من الاشكال جزء لا يتجزأ من نقاش اديلوجي يمتد على نطاق واسع جدا : انه يرد على شيء ما، ويفند، ويؤكد، ويستبق الاجوبة والاعتراضات المحتملة ويبحث عن سند الخ...

إن أي قول مهما كان دالا وتاما بذاته لا يكون سوى **جزء** من تيار التواصل اللفظي المستمر (الذي ينسحب على الحياة اليومية، والادب، والمعرفة، والسياسة الخ) الا ان هذا التواصل اللفظي المستمر لا يشكل بدوره سوى عنصر من عناصر **التطور** الشامل والمستمر لمجموعة مجتمعية معينة. ويترتب عن هذا مشكل مهم : هو دراسة العلاقات بين التفاعل الملموس والمقام غير اللسني المباشر، وخلف هذا الاخير السياق المجتمعي الموسع. تتخذ هذه العلاقات أشكالا متنوعة، وتحصل مختلف عناصر المقام، وفي علاقة بهذا الشكل أو ذاك، عَلَى دلالة مختلفة (وكذلك تختلف العلاقات التي تربط بين مختلف عناصر مقام التبادل الفني عن علاقات التبادل العلمي). ويستحيل فهم وتفسير التواصل اللفظي بمعزل عن هذه العلاقة التي تربطه بالمقام العيني. فالتواصل اللفظي متشابك بكيفية مبهمة مع أنواع التواصل الاخرى. وينمو معها في الارضية المشتركة لمقام الانتاج. وبدهي أنه يستحيل فصل التواصل اللفظي عن هذا التواصل الشامل المتطور دائما. بفضل هذه العلاقة الملموسة بالمقام يستدعي التواصل

على الدوام أفعالا مجتمعية ذات طابع غير لفظي (حركات العمل، حركات رمزية تؤلف طقسا أو شعائر الخ..) لا يشكل في الغالب سوى تتمة لها، ولا يوجد الا لخدمتها.

يحيى اللسان ويتطور تاريخيا في **التواصل اللفظي الملموس، وليس في النظام اللساني المجرد لصيغ اللسان، ولا حتى في النفسية الفردية للمتكلمين.**

ويترتب عن ذلك ان يكون الترتيب المنهجي لدراسة اللسان هو التالي :

1) الصيغ وأنواع التفاعل اللفظي في علاقتها بالشروط العينية التي يتحقق فيها.

2) صيغ الاقوال المتميزة، والافعال الكلامية المعزولة في علاقة وطيدة بالتفاعل الذي تُكَوِّنُ هذه الافعال عناصره، أي مقولات الافعال الكلامية في الحياة وفي الابداع الايديولوجي والتي تتقبل تحديد التفاعل اللفظي لها.

3) ثم انطلاقا من هنا، فحص صيغ اللسان في تأويلها العادي.

يتم التطور الفعلي للسان حسب هذا النسق نفسه وتتطور العلاقات المجتمعية (تبعا للبنيات التحتية)، ثم يتطور التواصل والتفاعل اللفظي في اطار العلاقات المجتمعية، وتتطور أشكال الافعال الكلامية بسبب التفاعل اللفظي وأخيرا، تنعكس عملية التطور في تغير صيغ اللسان.

ينتج عن كل ما سبق ذكره أن قضية صيغ القول باعتبارها كُلّا تكتسب أهمية عظمى. ولقد سبق أن أشرنا الى أن ما تحتاج اليه اللسنيات المعاصرة هو مقاربة للقول في ذاته. فتحليله لن يذهب الى أبعد من تقطيعه الى مكونات مباشرة. ورغم ذلك فإن الوحدات الحقيقية للسلسلة الكلامية هي الاقوال. لكنه يستحسن بالضبط، لأجل دراسة صيغ هذه الوحدات الا تُفْصَلَ عن التيار التاريخي للقول. فالقول لا يتحقق بصفته كلا الا في تيار التواصل اللفظي لان الكل تحصره حدوده المكونة من نقط تماس قول ما واحتكاكه بالمحيط غير اللفظي واللفظي (أي الاقوال الاخرى).

وتمكننا أول كلمة وآخر كلمة في مقال ما أي مبتدأه ومنتهاه، مسبقا من وضع مشكل الكل. فعملية الكلام ــ بمَعْنَاهَا الاوسع أي كعملية نشاط لغوي سواء كان خارجيا أو داخليا ــ لا تتوقف، وليست لها بداية ولا نهاية. اذ القول المُنْجَزُ كالجزيرة الطافية على محيط لا حدود له، ذلك هو الحديث الداخلي أما أبعاد وأشكال هذه الجزيرة فيحددها مقام المقال **وسامعوه.** أن المقام والسامع يجبران الحديث الداخلي على التجسد والتحقق في تعبير خارجي محدد يندمج مباشرة في السياق غير المعبر عنه، سياق الحياة اليومية، والفعْل أو الحركة أو الجواب اللفظي للمشاركين الاخرين في مقام هو الذي يجعله يتحقق في هذا السياق.. ان السؤال المطبق، والتعجب، والامر والطلب أو الالتماس أقوال كاملة ونماذج نوعية للحياة اليومية. وهي كلها (سيما الامر والطلب) تفترض مكملا غير لفظي تماما مثل بداية غير

لفظية. تصاغ هذه الانواع من الاحاديث الصغرى للحياة اليومية باحتكاك الكلام مع المحيط غير اللفظي ومع كلام الغير. وهكذا فإن صيغة الامر تحددها العراقيل التي يمكن ان تعترضها، ودرجة استسلام المتلقي الخ... ويستجيب صوغ الاقوال هنا الى المميزات الخاصة والعارضة واللامتكررة التي تتّصف بها مقامات الحياة اليومية. ولا يمكن التحدث عن صيغ نوعية وعن مسكوكات في احاديث الحياة اليومية الا بقدر ما توجد أشكال حياة عامة مهما قل تنظيم وضبط وتقوية الاستعمال والعادة والظروف لها. على هذا الاساس نجد أنواعا خاصة من الصيغ المسكوكة التي تستجيب لحاجيات حديث الصالونات، وهو حديث تافه لا تترتب عنه أي التزامات، وحيث كل المشاركين متآلفين متعارفين فيما بينهم. ويكمن التمايز الرئيس فقط بين الرجال والنساء، وتوجد صيغ خاصة من الكلمات ــ التلميحية، والتضمينات، وتذكر الحوادث التافهة مبلورة الخ.. ونوع آخر من الصيغ يتبلور في حديث الزوج وزوجته، والاخ مع أخته. يستهل الاشخاص الغرباء عن بعضهم البعض والمجتمعين صدفة (في طابور أو في كيان ما) تصرخاتهم وأوجوبتهم وينشئونها وينهونها بشكل مختلف تماما.

وهناك أنواع أخرى في جلسات السمر بالبادية، والاحتفالات الشعبية بالمدينة، وفي أحاديث العمال أثناء الغذاء الخ. لكل مقام راسخ دائما في العادات جمهوره السماعي المنظم بكيفية من الكيفيات، وله بالتالي قائمة من الصيغ الصغيرة الجارية على الالسن. وفي كل مكان تستقر الصيغ المسكوكة بالمكان الخاص بها في حياة المجتمع عاكسة، اديلوجيا، نوع وبنية، وأهداف الجماعة وتركيبها المجتمعي. إن صيغ الحياة اليومية تكون جزءا لا يتجزأ من الوسط المجتمعي، فهي عناصر الحفلة، وأوقات الفراغ، والعلاقات التي تنعقد في الفندق، والمعامل الخ... إنها تتوافق مع هذا المحفل فيحصرها ويحددها من جميع مظاهرها. كما نلاحظ وجود سجلات مختلفة في أماكن الانتاج وفي محافل الاعمال. أما فيما يخص أشكال التواصل الاديلوجي بالمعنى الدقيق للكلمة فان صيغ التصرخات والوثائق السياسية، والقوانين، والعبارات الخاصة، وصيغ الاقوال الشعرية، وبحوث العلماء الخ.. كلها كانت موضوع بحوث بلاغية وشعرية مختصة. لكن هذه البحوث ــ كما سبق أن بيّنا ــ مفصولة كليا عن مشاكل اللسان من جهة وعن مشاكل التواصل المجتمعي من جهة أخرى. ولا يمكن أن يكون هناك تحليل خصب لاشكال القول الكامل كوحدة أساسية في السلسلة الكلامية الا اذا اعترفنا بالقول كوحدة للتظاهرة الاجتماعية، وجب على الفلسفة الماركسية للسان بالضبط ان تضع القول كواقع لغوي وكبنية اجتماعية ــ اديلوجية أساسا لمذهبها.

لنعد الآن، بعد ان وضحنا البنية المجتمعية للقول، الى اتجاهين من اتجاهات الفكر اللسني لنستخلص نتائج نهائية.

تبنى عالمة اللسنيات الموسكوفية ر.شور (R.Schorr) التي تنتمي الى الاتجاه الثاني في الفكر الفلسفي ــ اللسني (الموضوعانية المجردة) محاولتها السريعة وضعية اللسنيات المعاصرة بالكلمات التالية :

«يؤكد البحث اللسني الرومنسي في نهاي القرن 19 أن «اللسان ليس شيئا (ergon) ولكنه أساسا نشاط طبيعي انساني مسلم به (energeia). أما ما تذهب اليه اللسنيات النظرية المعاصرة. فشيء مغاير تماما : «ليس اللسان بنشاط فردي (energeia) ولكنه مكتسب تاريخي ثقافي للانسانية «(ergon) (6)

تدهشنا هذه الخلاصة بتحيزها وقبليتها. فهي مخطئة كليا على مستوى الوقائع والواقع ان تكثرة فوسلر ترتبط أيضا باللسنيات النظرية المعاصرة، فهي الان أحد التيارات الاقوى في الفكر اللسني بألمانية. فمن غير المقبول تقليص اللسنيات الى اتجاه واحد فقط من بين اتجاهاتها المتعددة. وعلى المستوى النظري يجب علينا دحض كل من الاطروحة ونقيضها الذين عرضتهما شور. الحقيقة انهما معا لا تعرضان الطبيعة الحقيقية للسان.

وسنبذل الان ما وفي وسعنا لصياغة وجهة نظرنا الخاصة في شكل المقترحات التالية :

1، ليس اللسان، بوصفه نظاما قارا من الصيغ المرتكزة هُوِيَّتَهَا على شكل، سوى **تجريد عالمي** [معقّد] لا يصلح الا ل**لأهداف النظرية والتطبيقية الخصوصية**. ولا يعرض هذا التجريد بامانة الواقع الملموس للسان.

2، يُكَوِّن اللسان **عملية تطور متواصل**، تتحقق عبر **التفاعل اللفظي الجتمعي للمتكلمين**.

3، ليست قوانين التطور اللسني، أبدا، بقوانين **فردية ــ نفسية**، ولا يمكن فصلها عن نشاط الذوات المتكلمة. فقوانين التطور اللسني، في جوهرها **قوانين اجتماعية**.

4، لا تتفق الخاصية **الابداعية** للسان مع الابداعية الفنية أو أي شكل من أشكال الابداعية الاديلوجية الخاصة، لكن، يستحيل في الوقت نفسه أن تُفْهَمَ ابداعية اللسان **بمعزل وفي استقلال عن المضامين والقيم الاديلوجية المرتبطة بها**، إن تطور اللسان، كأي تطور تاريخي، يمكن أن يُدْرَك كضرورة عمياء من النوع الآلي، لكنه يمكن ان يصير أيضا «ضرورة تعمل بحرية»، بعد ان تصبح ضرورة مرغوبا فيها.

5، ان بنية القول بنية مجتمعية محضة، ولا يصير القول، بوصفه كذلك [حقيقة] فعلية الا فيما بين المتكلمين. إن واقعة الكلام الفردي (بالمعنى الدقيق لكلمة فردي) عبارة عن contnadictio in abjecto.

نقله الى العربية :
محمد البكري

* هوامش الترجمة العربية ستلحق بآخر فصل من القسم الثاني من هذا الكتاب والذي سينشر في عدد مقبل من «ث. ج»

هوامش :

(1) «الفكرة التي يعبر عنها الكلام أكذوبة» (تشوتشيق) (Tchoutchec) ، «آه، لو استطعنا فقط التعبير عن الروح بدون ألفاظ». (فيت) (Fet). هذا التصرعان نموذجيان للرومنسية المثالية.

(2) فيما يخص امكانية انفلات مجموعة من ردود الفعل الجنسية الانسانية من السياق المجتمعي وضياع (التعبير اللفظي عن المعاش، وهو ضياع يرتبط بتلك الافعال انظر : (الفرويدية) لباختين. ص 135 ــ 136 (الطبعة الروسية) «منظمة تقوم على الملكية الفلاحية الجماعية كانت قبل ثورة 1917 (ملاحظة في هامش الترجمة الفرنسية)

(3) يمكن اقتطاف معطيات مهمة تتعلق بالتعبير عن الجوع في مؤلفات لسني شهير معاصر هو ليوسبيتزر عضو مدرسة فوسلر : Italienische Kriegsgefaugenebrife et Die Umschoieibungen des Begriffes hunger. والمشكل الاساسي المطروح هو التكيف المزن للكلمة وللتصور مع شروط وضعية استثنائية والمؤلف نحونه، مع ذلك، المقاربة الاجتماعية المتعمقة.

(4)على هذا الاساسي نجد ان بناء الكتاب نفسه مهم وينقسم الى أربعة أبواب هذه هي عناوينها : «1. أشكال مدخل الحوار. 2. المتكلم والمخاطب؛ أ) اعتبارات من أجل الشريك ؛ ب) الاقتصاد والتبذير في التعبير ؛ ج) تداخل الاحاديث المتناقضة. 3. المتكلم والمقام. 4. نهاية الحوار» وقد سبق هرمان يوندرليس (H,Wunderlich) ليو سبيتزر في ميدان دراسة لسان اخادثات العادية تجرى في ظروف التواصل الواقعية. انظر كتابه Unser Umgangsprach (1894).

(5) انظر Die Probleme des Sprachpeychologie. 1941

(6) مقال كتبته شور وسبق ان أشرنا اليه «أزمة اللسنيات المعاصرة» ص 71.